حلايب - أبو رماد - الشلاتين: أرض الأحلام

هبطت الطائـرة أرض مطـار برنيس، أنتظر بشـوق رؤية الأرض، الناس، وأنتظر بلهفة ملامسة واقع مصرى على حدود جنوبية تبحث عن أمنها بشكل حقيقى، ألتهم التاريخ، وأقفز إلى الواقع، أصل إلى نتيجة: هذه أرض أجدادى، وهى مفتاح الحل لأحفادى.

هـذا التكويـن الرائـع، أرض ممتـدة - ذهبية اللون فـى المنظور الإبداعى - صفراء فى الحقيقة، يجاورها البحر الأحمر بزرقة صافية، فيقابله امتداد جبل «علبة» بشموخ يحسد عليه.

نقطع نحو مائة كيلو إلى الشلاتين، الضلع الأول فى «مثلث الأحلام» .. نلتقـى بعيون الجمال الواثقة، الباحثة عن بعض من طعام لتختزنه للزمن، وفى انتظارها على الجانب الآخر «سمسـار» يبحث عن عمولة من بيعها، لتسـتقر فى النهاية فى بطون تبحث عن لحم آمن، فى زمن أنفلونزا الطيور!

تقابلنا الوجوه السمر

بعضهـا «كالح» بحكم التجاهل والتباعد الذى اسـتمر طويلا، لكن وجـوه الأطفـال ذى سمـرة ناصعة، لأنهـا لامعة، وربمـا حالة بغد أفضل!

«حسين» ..ابن العاشرة اصطحبنا فى جولة سياحية - على عربته الكارو وحماره. فى سوق الشلاتين، متطوعا، رافضا أن يتقاضى أجرا، لأننا على حد قوله ضيوفه، وفى المقابل طلب أن يرى الفندق الذى نعيش فيه، والأكثر: دورة مياهه!

«السوق» ..علبة صفيح، تحتوى على بهارات و بن وبعض أصداف، وسياح متناثرين جاءوا من مرسى علم.. وربما تحتوى هذه «العلب الصفيحية» أحلام البيزنس فى المستقبل!

نبحث عن مصريتنا فى وجوه الأطفال، ونبحث عن المستقبل على صفحات الرمال الممتدة، ونتشوق أملا فى وجوه الرجال المثبتين على هذه الأرض التى تستحق الحياة.

جئنا جميعا إلى حدودنا الجنوبية من مصر.

من الحدود الشرقية «العريش» ومن وسط الصعيد «بنى سويف» .. ومن القاهرة «المركز» .

كنا رفقة عددها مائة. بعضنا موظفون فى الثقافة الجماهيرية، وكثير منا فنانون يبحثون عن أبجدية وجودهم الإبداعى، على هذه الأرض البكر.. وبعض منا صحفيون.

بعض من الرفقة ضمت: طلعت مهران وألبير إبراهيم ومجدى شلبى من كبار موظفى الهيئة، ومعهم الجميلان محمد عزت ووليد مهدى، ومن الباحثين المفتونين بالمنطقة من خلال تراثها الفلكلورى مسعود شومان، ومن الصحفيين أحمد هريدى ويسرى السيد والفتى سيد يونس.

كلٌ يبحث فى وجه الآخر عن «الانفعال باللحظة التاريخية على هذه الأرض» .

كنا أول قافلة ثقافية تصل إلى هذه المنطقة الساحرة البكر، الهامة بوضعيتها الاستراتيجية، المثيرة للجدل فى كتب التاريخ، وفى أجندة الساسة، الباحثة عن مكان لائق بها على خريطة الاهتمام المصرى الرسمى والشعبى.

هى.. تحتاج إلى التنمية البشرية - كما يقول عمنا جمال حمدان - فى تنمية الصحراء، عندما كان يبحث عن العلاقة الحميمة بين الأرض والبشر، والإنسان والوطن.

حدثنا فى حماس قبل الرحلة، د. أحمد نوار رئيس الثقافة الجماهيرية.. «هى - أى الرحلة أو القافلة - تهدف إلى تحقيق الانتشار الثقافى، وتغطية المناطق الحدودية والنائية، كما تهدف إلى تحقيق التفاعل بين ثقافة المركز وهذه المناطق، لتنصهر فى بوتقة واحدة، وتعطى ملمحا ومذاقا خاصا، لتعبر عن الثقافة المصرية بجذورها الثابتة والممتدة عبر القرون، وما تحمله من قيم وعادات وتقاليد، تسهم فى النهاية فى ترقية الوجدان المصرى، وتعمل على تأكيد أصالته» .

يضيف.. «والقافلة تأتى فى إطار نشاط مدروس للتوجه إلى جميع المناطق المحرومة من الثقافة» . !

(١)

أمضينا أسبوعا. ننتقل فيه من ضلع إلى ضلع آخر فى المثلث،

من الشلاتين إلى أبو رماد إلى حلايب، المساحة الإدارية حوالى ٢٥٠ كم من جملة المساحة الكلية البالغة ١٨ ألف كم.. وهو يبعد عن القاهرة كثيرا كثيرا، يبعد مئات السنين، لأن عمره آلاف، آلاف السنين.

المدهش.. تفاعل الناس.. هم عطشى للثقافة المصرية، برغم وجود «الدش» على كل منزل من «الصفيح» !

كل ليلة.. تتأنق النساء. ويرتدى الرجال الملابس النظيفة. ويحوم الأطفال فى فرح!

وتضمنت القافلة فرقة بنى سويف للفنون الشعبية التى بهرت مواطنى المثلث، بألوان ملابسها الزاهية، وتابلوهاتها التى تمثل الحياة فى وادى النيل، خاصة الزراعة ومواسم الحصاد، فضلا عن الإيقاعات السريعة، والموسيقى الغنية بتراث الإنسان المصرى فى الوادى.

وقد تأسست الفرقة – التى تغلبت على أحزانها عقب محرقة قصر ثقافة بنى سويف كما يقول مدرب الفرقة محمد الحريرى – عام ١٩٩٥. وتتكون من ٤٥ عضوا ما بين راقص وراقصة وموسيقيين ومنشدين.

وقد شاركت الفرقة على مدار العقد الماضى فى مهرجانات: بلغاريا وأسبانيا واليونان والمجر وإيطاليا، ومن برامجها: الفرعونى، الفلاحى، الصعيدى، الآلات الشعبية، المولد، الفرح الفلاحى، الحصان، والتنورة.

أما فرقة سيناء البدوية للتراث التى جاءت من أقصى حدود مصر

الشـرقية من «العريـش» إلى أقصى حدود مصر الجنوبيـة فى «المثلث» فقد أحدثت تأثيرا بالغا لدى المواطنين، لتشـابه العـادات والتقاليد، وبدا التفاعل ساخنا بين الطرفين.

ويمكن القول.. إنها فرقة مميزة فى تقديم التراث البدوى الأصيل، وكان لأغانى ومواويل حميد إبراهيم، مع الأداء الحركى لإيمان الدسوقى بملابسـها العرايشية ذات الطابع الفلسـطينى أثر بالغ فى التجاوب، بـل والفهم المشـترك بين مواطنى مصـر فى المثلـث، وفنانى مصر من سيناء الشمالية.

والفرقة التـى حرصت على تجميع التراث السـيناوى، تتكون من ٢٥ عضوا، وتعزف موسيقاها على آلات المجرونة والسمسمية.

أما «الأراجوز» الذى قدمه أحمد شـكوكو ابن شـقيق الفنان الراحل محمود شكوكو، فقد ألهب خيال الكبار قبل الصغار.

والأراجوز.. وهو أحد أشكال مسرح العرائس، عاش طويلا فى مصر «بطرطوره» الطريف، وصوته المميز، وعصاه الصغيرة، التى يضرب بها من يحاوره أو يختلف معه.

وهـو يقدم عرضـا فكاهيا سـاخرا من «حدوتة أو نكتـة» تعبر عن تناقضات المجتمع، ويؤكد علماء الآثار أن الأراجوز وجد فى الحفريات المصرية القديمة، أى إنه فن مصرى أصيل، نقله فيما بعد الأتراك أثناء احتلالهم مصر.

(٢)

والمثلث.. يضم الشلاتين التى تقع على خط عرض ٢٢ شمالا، وقرية أبـو رماد التى تبعد ١٣٣ كم من الشـلاتين، وحلايب وتبعد ١٧٠ كم، ورأس حدربة وتبعد ١٩٠ كم، وأبرق وتبعد ١٣٥ كم، ومرسـى حميدة وتبعـد ٥٠ كـم.. كما تبعد الشـلاتين عـن الغردقة بنحـو ٥٥٠ كم، وعن مرسى علم ٢٥٠ كم.

ويبلغ عدد سكان المثلث – كما يقول العميد على شوكت رئيس مدينة الشـلاتين مع نهاية عام ٢٠٠٥ نحو ١٥ ألف نسـمة.. وتتخلل الحدود الإدارية للشـلاتين منطقة سهل ساحلى يزداد فى الاتساع كلما اتجهنا جنوبـا حتى قرية أم رماد، كما تمتد سلسـلة جبال البحر الأحمر فى الاتجاه الغربى للشلاتين، ومن أهمها جبال «أبرق» القرايد، أم الطيور، علبة، حمرادوم، حدربة، ملدوب.

وتخترق سلسـلة جبال البحـر الأحمر عددا من الوديـان أهمها: «سـعفة، الرحبة، حوضـين، أبو سـفيرة، دعب، كرات، سـرارة، الشـلال، ميسـح» .. ويوجد عدد من الآبار الصالحة للشرب.. أهمها: «الجاهلية، أبابيب، العمريب» .

وتقع الشـلاتين جنوب مدار السرطان، وذلك يؤدى إلى ارتفاع درجة الحرارة تسـعة شهور فى السنة، ويوجد منفذان مع السودان «حدربة، سوهين» .. ويربط منفذ حدربة بالشلاتين طريق أسفلتى بطول ١٩٤ كم، وتدخل منه البضائع الواردة من ولاية بور سودان شرق السودان، أما منفذ

«سـوهين» فيتصل بمدينة الشـلاتين «بمدق» بطول ٢٠٠ كم وتدخل منه البضائع الواردة من ولاية وادى النيل.

وأهم الواردات: الإبل، الحاصلات الزراعية، السمسـم، الكمون، الذرة الرفيعة، الفلفل الأسود.

وتمتلك مدينة الشـلاتين وقراها مسـاحة تبلغ ٢٥٠ كم على سـاحل البحر الأحمر، الذى يحتفظ بكميـات كبيرة من أجود أنواع الأسماك، كمـا أن المنطقة غنية بالثروات المعدنيـة، ومقومات الصناعة.. ويطالب العميد على شوكت بوضعها على خريطة التعدين.

وهناك ثلاث حرف رئيسية هى الرعى والصيد والزراعة، والرعى.. هى الحرفة الرئيسية لأغلب سكان المثلث، إذ إنهم بدو رحل، يتجولون باسـتمرار حول الآبار والوديان، وتعتبر الإبل هى الحيوان الرئيسـى فى المنطقة، وهناك نوعان:

١ - إبل الحمل وهى قوية العضلات، ضخمة السنام، ثقيلة الوزن.

٢ - إبل الهجن، وهى سريعة العدو، خفيفة، قليلة الشحم.

(٣)

وترجع الأصول السـكانية الأولى لسـكان المثلث منذ القدم إلى قبيلة «البجـا» التى كانت تعيش منـذ أكثر من أربعة آلاف عام، واسـتعان بهـم الفراعنة فـى الدفـاع عن الوطـن، ولفظ «بجـا» يعنـى «المقاتل القوى الشجاع»!

ومن أهم فروع البجا:

١ – الهدندوه
٢ – الأمرأ
٣ – الحلانقة
٤ – بنى عامر
٥ – العبابدة
٦ – البشارية

وتنتشر الفروع الأربعة الأولى من قبائل البجا فى السودان، وأثيوبيا، فيما ينتشر الفرعان الأخيران فى السودان ومصر، ويتحدث العبابدة اللغة العربية التى تتضمن بعض المفردات البيجاوية، أما البشارية فيتحدثون اللغة البيجاوية «الرطانة» .. وقليل منهم يتحدث العربية مع البيجاوية.

وتنقسم قبيلة «البشارية» إلى فروع أهمها: الحمادوراب، العلباب، الأمراء، الشنتيرات، ويسكنون الصحراء الشرقية، أما قبيلة «العبابدة» فينقسمون إلى بطون أهمها: الشناتير، العبوديون، المليكاب، العكارمة، «العشباب» ، وقد اندمجت قبيلة العبابدة مع سكان وادى النيل، ماعدا «العشباب» الذين يعيشون فى الصحراء الشرقية، من القصير إلى آخر حدود مصر مع السودان.

أما قبيلة «الرشايدة» .. فهى غير معترف بها على المستوى الرسمى. من حيث الحقوق والواجبات، وهم يعيشون بمعزل عن البشارية والعبابدة، وهم لا يمتهنون الصيد، وزيارتهم لمدينة الشلاتين تتم بتصاريح، ولعدة أيام، ثم يعودون إلى خيامهم، ويعملون بالتجارة

والرعى، وترجع أصولهم إلى أصول سعودية تنتمى إلى آل رشيد، وقد نزحت إلى مصر عندما تولى آل سعود الحكم.

ولم تختلط قبيلة الرشايدة مع الشعوب الأفريقية، ولم تتأثر بهم فى الملامح الجسدية مثل لون البشرة والعيون والشعر الأسود المسترسل، ولا تتمتع القبيلة بالحقوق التى يتمتع بها قبيلتا العبابدة والبشارية، لكن يقدم لأفرادها - بواسطة الوحدة المحلية - الخدمات الإنسانية وتصاريح الإقامة، لأهداف سياسية.!

وتواجه قبيلة الرشايدة مشكلات منها:

- ☐ عدم التمتع بحرية الانتقال كغيرهم.
- ☐ عدم وجود بطاقات إثبات شخصية لأفرادها.
- ☐ عدم توفر الكهرباء أو مياه الشرب مع نقص الرعاية الصحية!

(٤)

وتنتسب قبيلة البشارية إلى جدهم «بشار بن كاهل» ويرجع نسبه إلى قبيلة «الكواهلة» التى تنحدر من نسل الزبير بن العوام، وقد تزوج بشار من امرأتين من «البجا» .. الأولى: «أم ناجى» والثانية «أم على» .. وهم أولاد عم العبابدة، ومنذ أيام هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم صاروا قبيلتين منفصلتين.

وتنقسم قبائل البشارية إلى قسمين :

١ - بشارية أم ناجى.

٢ - بشارية أم على.

ويسكن بشـارية أم على شمال خط ٢٢، وأهم فروعهم «الشنتيراب» ولفظ «آب» يعنى «الانحدار من الجنوب» .. أما بشارية أم ناجى فيسكنون بعد خط ٢٢ داخل السودان ووسطه.. أما جنوب الشلاتين حتى خط عرض ٢٢ على ساحل البحر الأحمر، فيسكنها قبائل الحمد أوراب.

وقد نزحت قبائل البشارية من الجزيرة العربية – فى وقت مبكر – إلى السـاحل الأفريقى، وقد اختلطوا بالزنوج، وتزوجوا منهم، وأخذوا عنهـم لغة «البجا» .. ولأنـه لا توجد مواصلات بين أجزاء المثلث. فقد انغلقوا على أنفسـهم، وكونوا جماعات منغلقة، يتحدثون لغة البجا، ومع مرور الأيـام، اندثرت اللغة العربية، وصاروا لا يتكلمون سـوى اللغـة الزنجية، أو لغة البجا.. وتذكر حكايات التاريخ أن البشـارية هم «حراس الذهب» منذ أيام الفراعنة!.

(٥)

وفى المشـهد العـام تبدو الصحـراء الشاسـعة – لأول وهلة – كما لـو أنها تفتـح ذراعيها لأى قادم إليها، ليقيم عشـوائيا فى أى مكان، أو ليدعـى ملكية من يشـاء، خصوصا أنه لا يلوح فـى الأفق أى مظهر من مظاهـر الملكية الخاصة! .. غير أنه بالنظرة المتأنية يتضح أن الأمر مختلـف إلى حد بعيـد، فمناطق الإقامـة والرعى فى تلـك الصحراء، وإن كانـت عرضة باسـتمرار للتغـير، بانتقال قاطنيهـا، يراعى عند اختيارهـا عدة اعتبارات، تعود أغلبهـا إلى الظروف البيئية والعوامل الطبيعية، ويعود البعض الآخر إلى عوامل اجتماعية وظروف سياسية،

وكلها عوامل يدركها البدوى جيداً، باعتبارها تراثا حضاريا ينحدر إليه عبر الأسلاف.

ولكى يقيم البدوى مسكنه المؤقت أو شبه الدائم، الذى يتألف عادة من بيت من الشعر، أو من الجدائل النباتية، أو من الصفيح، ينبغى أن يختار موقعا منبسطا على ربوة عالية، على حافة الوادى الجبلى، أو على مصطبة أحد الأودية الفرعية، وذلك تفاديا لمخاطر السيول الجارفة والمفاجئة من ناحية، وابتعادا عن مناطق زحف الكثبان الرملية من جانب آخر، فضلا عن أن اختيار الموقع يجب أن يكون قريبا من مصادر المياه الطبيعية المتمثلة فى الآبار، وإن كانت الإبل ترعى فى مساحات واسعة، وبالأيام، وتعود من تلقاء نفسها إلى أصحابها.

فضلا عن ذلك، وفى الوقت الراهن، وطبقا لدواعى الأمن، والظروف السياسية التى تحكم العلاقات المصرية السودانية، وما نجم عنها من مواقف غير طبيعية، فإنه ينبغى عند اختيار الموقع للإقامة والرعى، أو لكليهما، خصوصا فى المناطق القريبة من الحدود الفاصلة بين البلدين، أن تتم بالتنسيق مع قوات الأمن وحرس الحدود العاملة فى تلك المناطق.

ويشاهد فى الأماكن الحضارية التقليدية فى الشلاتين، أبو رماد، حلايب، بعض المظاهر المصرية المتمثلة فى المنازل النمطية والطرق المخططة، ويمكن أن نطلق عليها مجازا «قرية» .. وتتكون كل قرية أو حلة «أى حى» من عدد من العائلات الكبيرة أو «البدنات» التى تقوم على نظام الانتساب فى خط واحد، وهو دائما «الخط الأبوى»..

فكل جماعة يرتبط أعضاؤها ببعض، بروابط الدم العاصبة، أى إنهم ينحدرون فى خط الذكور من سلف مشترك تعرف جماعته باسمه. مثل عائلة «الفرحانات» فى الشلاتين، والشويمات والجامعات فى أبو رماد.

وتتماثل مساكن العبابدة مع البشارية إلى حد كبير، فحياة البداوة تتطلب أن يكون المسكن بسيطا، يسهل حله من وقت لآخر، ومن مكان إلى مكان، وهى تتكون من الخيام المصنوعة من الحصير المجدول من سعف النخيل، وبعض من القماش السميك، أو الخيش، وأحيانا من صوف الغنم أو جلد الماعز، أو وبر الإبل، ويختارون إقامتها بعيدا عن مخرات السيول.. ومن عاداتهم ألا تكون أكواخهم ملاصقة لأكواخ الآخرين.

والطريف.. أن النساء هن المسئولات عن تجهيز الخيمة من معظم الخامات التى تصنع منها، والمنقولات التى تحتويها، وعليهن أثناء تجوالهن بحيواناتهن الصغيرة أن يجمعن فروع الأشجار المناسبة، والأعشاب الجافة اللازمة لعمل الهيكل الذى يقيمه الرجال، وهذا هو الإسهام الوحيد لهم!

كذلك، فإن النساء يجدلن الحصير، وينسجن الأقمشة، ويضفرن الحبال، وهن يقمن بتغطية هيكل الخيام من الخارج وكسوته من الداخل.

وينتشر الزواج بين العبابدة والبشارية. حتى يتفاعل كل من القبيلتين مع الآخر، فدائما زواج البنت من ابن عمها، أو أحد أقاربها،

ويتم هذا الزواج بناء على اختيار «الأب» للعروس، عند بلوغ الابن سن السادسة عشرة، والفتاة نفس السن.

واختيار الأب للعروس، هو عرف سائد لدى شباب القبيلة، ويستمر معها، فإن لم يحدث تفاعل بين الاثنين، يتركها ويتزوج غيرها، لكن في هذه المرة، تكون من اختياره هو!

وتقاليد الزواج تتناسب مع الحالة الاقتصادية والجغرافية، فالمهر الذى يدفع للعروس «ناقتان» يقدمهما والد العريس، واحدة «مقدم صداق» والثانية «مؤخر» .. وحين يتم الاتفاق لا توجد فترة خطوبة، وتبدأ مراسم الزواج، بعش الزوجية ويكون على شكل خيمة، بها بعض الأغطية من الصوف وجلد الحيوان، ويستمر الفرح سبعة أيام، ولضيق ذات اليد، يكتفى بثلاثة أيام هى «الخميس والجمعة والسبت» .

ويسجل عقد الزواج شيخ القبيلة، ومن العرف السائد إقامة العريس عند أهل العروس «سنة كاملة» حتى تنجب طفلها الأول، ثم تذهب معه إلى قبيلته، أما إذا تأخر الإنجاب، فيتزوج غيرها، لذلك يمثل تعدد الزوجات نحو ٦٥ بالمائة من حالات الزواج!

(٦)

والحدود المصرية – السودانية، تحتل فصولا فى تاريخ الحدود، والمدهش أن الحديث عن الحدود بين البلدين قبل أول يناير ١٩٥٦.. كان يعد دربا من دروب الخيانة الوطنية، باعتبار أن وادى النيل، يمثل وحدة واحدة شمالا وجنوبا.

لكن ذلك لا يمنع من الإقرار بحقيقة أن الحدود كانت موجودة، ومنذ زمن بعيد، ويروى أستاذ التاريخ يونان لبيب رزق القصة بقوله: «تصور غير صحيح ذلك السائد بين جموع الباحثين فى شئون العلاقات المصرية السودانية أن اتفاقية ١٩ يناير ١٨٩٩، بين مصر و انجلترا هى التى وضعت خط عرض ٢٢ شمالا كحدود بين البلدين، فقبل ذلك كان هناك خط آخر لتلك الحدود بين عرض كامل، وعلى وجه التحديد ٥٥ من ٦٠ من خط العرض، ولصالح مصر».

يضيف: «وقبل ذلك بنحو خمسين سنة، وتحديدا فى ١٣ فبراير ١٨٤١ ظهرت على الخرائط أول حدود بين البلدين، وهى حدود ارتبطت بالتسوية الشهيرة التى تمت بين القاهرة واستنبول» .. ومعروف تاريخيا أن هذه التسوية تمت على مرحلتين. مؤتمر لندن ١٨٤٠ والذى وضعت فيه الدول الكبرى الخطوط الأساسية، وفرمان الباب العالى الصادر فى ١٣ فبراير ١٨٤١، والذى جسد قرارات مؤتمر لندن».

وجاء فى الفرمان فيما يخص السودان القول بأن: «سدتنا قد ثبتتكم على ولاية مصر بطريق التوارث بشروط معلومة وحدود معينة، وقد قلدتكم فضلا عن ولاية مصر، ولايات مقاطعات النوبة والدارفور وكردفان وسنار وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة، ولكن بغير حق التوارث: فبقوة الاختيار والحكمة و التى امتزتم بها، تقومون بإدارة هذه المقاطعات وترتيب شئونها بما يوافق عدالتنا وتوفير الأسباب الآيلة لسعادة الأهلين،

وترسلون كل سنة قائمة إلى بابنا العالى حاوية بيان الإيرادات السنوية جميعها» .

ويفسر د. يونان هذا الفرمان بقوله: «وإذا كان هذا الفرمان الشهير لم يشر إلى حدود مصرية سودانية، فلم يكن جنوب الوادى حتى ذلك الوقت قد أطلق عليه السودان، وإنما كان ينظر إليه باعتباره مقاطعات ملحقة بمصر، فإنه أشار إلى حدوده الأخيرة، أو ماكان يعرف وقتئذ بمصر الأصلية، والأكثر من ذلك أن الباب العالى ألحق بالفرمان خريطة تبين هذه الحدود» .

وتؤكد الحقائق التاريخية أن وادى حلفا استمر قبل عام ١٨٩٩ سواء على المستوى العسكرى، أم الصعيد السياسى داخل نطاق أراضى «مصر الأصلية»، حتى جاءت اتفاقية ١٨٤١، وزحزحت خط الحدود إلى ٢٢ درجة شمالا، وبينما كان وادى حلفا يمثل أولى نقاط مصر الجنوبية على نهر النيل. فقد كانت «حلايب» تمثل أولى النقاط على البحر الأحمر.

ويرصد د. يونان ما نشرته صحيفة الأهرام من أخبار ما بين شهر أبريل ١٨٨٨ ومايو ١٨٨٩، فقد حدث أن أرسل المهديون السودانيون قوة لهم لاحتلال آبار حلايب، ولم تكن مصر تعول كثيرا على هذا التصرف، لو أنها ارتأت أن تلك الآبار تقع جنوب خطوط «مصر الأصلية» .. وقد قوبلت محاولة الاحتلال المهدوى بإجراء عسكرى مصرى عاجل، حيث بعث السردار بقوة عسكرية اشتركت مع بشير بك شيخ قبيلة العبابدة لطرد المهديين من المنطقة، وتنظيفها منهم - على حد تعبير

الأهرام – وإذا كانت هذه المبادرة العاجلة تدل على فهم مصر، باعتبار حلايب مصرية. فإن الإجراءات جاءت فى ثلاثة أخبار:

١ – فى ١٠ مايو ١٨٨٩: «جاء من حضرة الكولونيل هولد سميث فى سواكن، أن طابية حلايب، وهى بلدة تبعد نحو ٢٠٠ ميل من سواكن سيتم بناؤها بعد سبعة أيام، أما الدراويش – ويقصد المهديون – الذين كانوا يحاولون الهجوم على تلك الأنحاء، فقد تأخروا عنها، واتخذوا لهم مركزا فى نقطة تبعد عن حلايب بنحو عشرين ميلا. إلا إنه يخشى أن يعاودوا الكرة فى الجهات المذكورة، أما قبيلة البشاريين فمنتشرة فى طلب المرعى.

٢ – والخبر الثانى نشر فى ٢٩ مايو ١٨٨٩ ونصه: «ارتأى سعادتلو هولد سميث باشا قومندان سواحل البحر الأحمر بوجوب مساعدة سكان قرية حلايب مما يسد عوزهم إلى أمد قليل، ويمكنهم من القيام بالأعمال المساعدة فى الكسب، وذلك على إثر ما أصابهم من المضار والفاقة فى الموقعة التى جرت بينهم وبين الدراويش».

٣ – ونشر فى ٣١ مايو .. وجاء فيه: «قرر سعادتلو سردار الجيش المصرى بأن قبيلة البشارية القاطنة جهة حلايب، بلدة بقرب سواحل البحر الأحمر، حفاة عراة، لا يملكون قوت يومهم، وأن حالتهم هذه تستدعى شفقة الحكومة عليهم ومساعدتها لهم، وارتأى أن يتاح لسعادته إنفاق مبلغ ٢٠٠ جنيه فى الطرق الضامنة سد عوزهم إلى أجل محدود، وقد عرض قراره على مجلس النظار، فأجاب قراره».!

ويعلق د. يونان لبيب رزق على الأخبار الثلاثة بقوله: «وفضلا عما تضمنته هذه الأخبار من التأكيد على تبعية قبائل البشاريين لمصر، بحربهم ضد الدراويش، وبطلب المعونة من حكومة القاهرة، فإنها قدمت كل البراهين القانونية التى أكدت على مصرية هذا الميناء، وتلك المنطقة من خلال ممارسة شتى ألوان السيادة عليها».

يضيف: «وفى حالة حلايب - تحديدا - فإن أفخاذ قبيلة البشارية الواقعة شمال خط ٢٢ تتنوع روابطها بمصر، أكثر مما ترتبط بالسودان، والكلام من وثيقة بريطانية تتحدث عن بدنات البشارية المقيمة شمال خط ٢٢ .. وهى على النحو التالى:

□ جاء عن بدنة «الحمادوراب» .. أن لهم علاقات متنوعة مع العبابدة فى مصر، ويتصاهرون معهم كثيرا، ولهم قرى دائمة فى أسوان ودراو وغيرها من الأماكن على النيل.

□ الأليـاب.. وجاء عنهم أن لهم نفس الروابط مع العبابدة التى للحمادوراب.

□ الأمراب.. وجاء فيهم أن لهم علاقات واضحة مع أسواق جنوب مصر، ولم يبق بعد ذلك غير الشانتيراب الذين جاء عنهم فى الوثيقة «أنهم يتنقلون عبر خط ٢٢ لأغراض قبلية».

ويصل د. يونان إلى نتيجة مفادها: «لعل ما جاء فى هذه الوثيقة يشير إلى حقيقة لم نكن ندريها من قبل، وهى أن الترتيبات الإدارية لم تتم لأسباب بشرية متعلقة بمصلحة أبناء القبائل المقيمين شمال خط ٢٢..

بقدر ما تمت لأسباب إدارية تتصل برغبة حكام الخرطوم البريطانيين في التعامل مع ناظر واحد للبشارية الذين آثروا أن يضعوهم جميعا في سلة إدارية واحدة» .!

(٧)

ويمتلك د. «السيد فليفل» صورة ذهنية عامة ترى أنه منذ أن وطئت أقدام المستعمرين أرض السودان، سعوا جاهدين إلى فصله عن مصر، وهو ما ظهر جليا في اتفاق الحكم الثنائي ١٨٩٩، حيث ظهر خط ٢٢، كخط فاصل بين كيانى وادى النيل - مصر والسودان - وقد تتابعت الإجراءات البريطانية الساعية إلى تأكيد هذا الاتجاه.

ويعدد فليفل الإجراءات بقوله: تقليص عربى الاتصال بين الجانبين إلى أدنى مستوى ممكن، التضييق على التجار من الجانبين إذا ما سعوا إلى الاتصال، استخدام مقاسات مختلفة لخطوط السكك الحديدية، تأسيس كلية جوردن التذكارية بالخرطوم وجعل التعليم فيها باللغة الانجليزية، وهو ما أفرز صفوة سودانية جديدة راحت تبحث - بمقتضى الارتباط الثقافي بالانجليز - عن مستقبل للسودان بشكل منفصل.

ويرى د. «محمود أبو العنين» أن النزاع حول مثلث حلايب والشلاتين ارتبط بعاملين أساسيين الأول يتمثل في استقلال السودان عام ١٩٥٦، بعد نحو قرن وثلث من الارتباط السياسى بمصر، والثانى تظهر آثاره مع الأزمات المختلفة التى اعترت مسيرة العلاقات المصرية

السودانية.. ويشير إلى إنه على مدار ١٣٦ سنة منذ أن فتح محمد على السودان، وحتى استقلاله لم ينظر المصريون إلى السودان إلا من خلال منظور وحدوى، سواء أن السودان جزء من الدولة المصرية أم بمصطلح وادى النيل، وقد شارك كثير من السودانيين فى هذه النظرة، بالرغم من الفترة الاستثنائية للثورة المهدية فى السودان.

أما فيما يتعلق بمثلث حلايب.. فتذكر الحقائق التاريخية الموثقة أنه نشأ بمقتضى قرار وزير الداخلية المصرى الصادر فى ٤/ ١١/ ١٩٠٢، وطبقا لهذا القرار، تم وضع المنطقة الواقعة فى الركن الجنوبى الشرقى لمصر، والمحاذية لساحل البحر الأحمر «منطقة جبل علبه أو مثلث حلايب» تحت إدارة المحليات السودانية بغرض توحيد إدارة شئون القبائل، ولم شمل جماعة البشارية المصرية، مع كتلتهم الرئيسية الواقعة داخل الجانب السودانى.

ووفقا لهذا التعديل الإدارى، تم تحديد مناطق البدو فى الإقليم لتضم ما يعرف بمثلث حلايب المصرى، وقاعدته تقع على خط ٢٢ شمالا، وطوله نحو ٣٠٠ كم، وضلعه الشرقى يقع على ساحل البحر الأحمر بطول ٢٠٠ كم، بحيث يبدأ من جنوب حلايب على خط الحدود حتى بئر الشلاتين فى الشمال، أما الضلع الغربى، فهو متعرج، لكن على شكل خطوط مستقيمة تقريبا، حيث يمر الخط ببئر «منيجة» ثم جبل «تجروب» .. ثم جبل «أم الطيور» فجبل «الديجا» .. حتى يصل إلى خط التقاطع مع خط الحدود السياسية.

– والمثلث الذى يشكل قيام حلايب، يبلغ وفق التحديد ١٨ ألف كيلو مترا وهى مساحة تقارب مساحة دلتا النيل، كما يمتلك جبهة بحرية على ساحل البحر الأحمر بطول ٢٠٠ كم، مواجهة تقريبا لمنطقة الحجاز بالسعودية. ويقدر عدد سكانه وفق إحصاء ١٩٩٧ نحو ١٣,١١٨ نسمة ينتمون إلى قبائل البشارية والعبابدة، وأعداد قليلة من قبائل أخرى، ويشكل البشاريون نحو ٧٠٪ من السكان.

– مثلث جبل «بارتازوجا» .. وقد نشأ بمقتضى القرار الإدارى لوزير الداخلية المصرى فى ٤ /١١/ ١٩٠٢. وإعمالا على نفس المبدأ القائم على فكرة توحيد القبائل، حيث تقرر وضع قبائل العبابدة التى تعيش جنوب خط ٢٢ شمالا لنفس النظام الإدارى المصرى التى تخضع لهم كتلتهم الرئيسية التى تعيش على الجانب المصرى من خط الحدود.

وهذه المنطقة تقع غرب مثلث حلايب على الجانب السودانى وتشكل جيبا داخليا حبيسا داخل الصحراء، مساحته غير دقيقة، لكنها تقترب من تُسع مثلث حلايب، وتعتبر منطقة جبلية وعرة، حيث تبدأ عندها فروع وادى العلاقى، وتقطنها غالبية من قبائل العبابدة ذات الأصول المصرية.

(٨)

كنت فى الخرطوم، عندما صرح الرئيس السودانى عمر البشير لصحيفة خليجية فى شهر أغسطس ٢٠٠٢ بأن «مثلث حلايب سودانى،

وأن الأمـر برمته معروض فى مجلس الأمن» وقتئذ سمعت تفسيرين، أحدهما دبلوماسى من الدكتور مصطفى عثمان وزير الخارجية بأن الأمر لا يستحق زوبعة، وربما أرادت الصحيفة «إشعال الموقف» فطرحت المسألة على هذا النحو.. نحن - والكلام لعثمان - نريد منطقة المثلث، منطقة تكامل، ودافع بشدة عن وجهة نظر البشير التى تصب فى ذات الاتجاه.

أما التفسير الثانى.. فسمعته من بعض المحللين السياسيين السودانيين الوحدويين.. بأنه تآمر أمريكى على العلاقات المصرية - السودانية، واستغلال للموقف المصرى من اتفاق مشاكوس الذى وقع بين النظام السودانى والحركة الشعبية، لأن وجهة نظر مصر كانت تأخذ بالحل الشامل وعدم استبعاد أو إقصاء أى قوى سودانية من هذه القضية.

وقد ارتبط النزاع على الحدود فى مثلث حلايب، بأزمات العلاقات المصرية السودانية، وفترات التوتر بعد استقلال السودان عام ١٩٥٦، فقد قادت حكومة الثورة فى مصر - كما يقول الباحث د. محمود أبو العينين - مفاوضات صعبة مع الجانب البريطانى من أجل تحقيق الجلاء عن وادى النيل كله، سواء فى مصر أم السودان، وتم البدء بالسودان، حيث انتهت المفاوضات بتوقيع اتفاقية السودان فى ١٢ فبراير ١٩٥٣، وأعقبها الوصول إلى اتفاقية الجلاء فى مصر فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٤.

غير أن الملابسات التى أحاطت بعملية تقرير المصير فى السودان، وما صاحبها من هجمات إعلامية متبادلة بين البلدين، وما أسفرت عنه من تصميم السودانيين على الاستقلال، وتخلى الاتحاديين عن مبدأهم وهو الاتحاد مع مصر.. كل هذه الأوضاع ساهمت فى تبديد أحلام وحدة وادى النيل.. ومع رصد الأزمات صعودا وخمودا نرى:

١ – ينشب النزاع ويتصاعد فى حالة وصول حكومات سودانية مناوئة لمصر، وترصد حكومة عبد الله خليل وحزب الأمة ١٩٥٨، ووصول الجبهة الإسلامية للحكم عقب انقلاب يونيو ١٩٨٩.

٢ – يخمد النزاع حول حلايب فى فترات استقرار العلاقات.

٣ – فى كل الحالات.. تسعى مصر وهى تدير النزاع إلى عدم تدويله، والسيطرة عليه وضبطه فى الإطار الثنائى، حفاظا على خصوصية العلاقة بين البلدين.

(٩)

وأنقل شهادتين

هما تأكيد على هذا التلاحم المصرى السودانى، وتأكيد فى المنظور السياسى والحدودى على مصرية حلايب وشلاتين.

الأولى: لسفير السودان السابق فى مصر أحمد نور، والتى اعترف بها فى «ندوة الحدود المصرية السودانية بالقاهرة عام ١٩٩٧» وهى تفيض رقة وحميمية، هى طابع السودانيين الوحدويين.

يقول: «أشعر بحساسية بالغة عندما أتحدث فى موضوع الحدود، لا سيما وأنا أقيم فى قرية على الحدود، يقع نصفها شمال خط ٢٢، ونصفها الثانى فى جنوبه! .. وعلى رغم هذه الحساسية فقد أخذت من كلا البلدين خيرها وإيجابياتها، فقد تعلمت فى مصر، عندما كان التعليم فيها منارا للعالم الإسلامى، واشتغلت فى السودان، عندما كان العمل فيها هدفا لكل مصرى وسودانى» .

يضيف: «هذه ليست انتهازية، لأننى لازلت أعتبر مصر والسودان بلدا واحدا، ولا شك أننى عانيت من ذلك، وأعتقد أن وجود السكان والقبائل فى مناطق الحدود يساعد على الاستقرار» .

أما الشهادة الثانية، فصاحبها رجل سودانى جميل، جاب السودان شرقه وغربه وجنوبه وشماله كرجل تعليم، لكنه استقر فى عام ١٩٩٠ فى المثلث، ويدير مدرسة ابتدائية فى «أبو رماد» ولم يبرح المنطقة منذ ذلك التاريخ.

هو فنان تشكيلى فطرى.

أسأله: هل أنت سودانى؟

يجيب: لا

أعاود السؤال، وهل أنت مصرى؟

يقول: لا

إذن.. أنت من؟

يقول الفاضل خالد أشهر «معلم» فى المثلث فى العقدين الأخيرين، أنا ابن هذه المنطقة، أعلم أبناءها، الذين تخرج فيه الكثيرون، وعادوا ليعملوا معى فى المدرسة، أنا مصرى سودانى، أو قل سودانى مصرى، أقترب من الستين، اخترت الحياة فى هذه المنطقة الأثيرة إلى نفسى وعقلى، أرسم عندما تتاح الظروف، درست التاريخ جيدا، وخرجت بنتيجة: أننى من هنا، وأولادى هنا، بالرغم من أننى ولدت وسط السودان!

..

يبقى القول:

هذه أرض أجدادى.. ومفتاح الحل لأحفادى.!

obeikandl.com